والوصف ، حتى ليأسى المرء على أن لم يول العرب هذه المناحى من القول اهتماماً أكثر مما أولوها . وسينية البحترى مَثلٌ شرود من أمثلة الشعور الصادق والعاطفة الانسانية والروح الفنيــة فى الأدب العربى ؛ وأعجب من تفردها فى الأدب العربى صدورُها عن البحترى الذى سخَّر بيانه للمدح والهجاء . وقد كان نقاد العرب يطربون لهــذه الأشعار الفنية الجميلة ، البعيدة عن آثار المدح والهجاء والنسيب المتكلف ، فقد أعجب الجاحظ وغيره بسينيتى البحترى وأبى نواس سالفتى الذكر ، وعدوهما من ذخائر الشعر العربى ، ولكن دواعى مثل هذا النظم كانت نادرة ، وتيار محاكاة السابقين كان يدفع الأدباء فى غير هذا الاتجاه

فالأمتان العربية والانجليزية تتفقان فى ظهور الأدب فيهما على سائر الفنون واجتذابه أغلب نوابغهما ، واشتهارهما بالسبق فيه بين الأمم ، فان الانجليز وإن جاروا الأوربيين فى مجالات النحت والتصوير لم يبلغوا شأوهم كما بلغوا الشأو والغاية فى صناعتى الشعر والنثر ، ولم ينجبوا من أعلام النحت والتصوير من توازى مكانته العالمية مكانة شكسبير وملتون وبيرون ؛ ولكن تفترق الأمتان فى أنه بينما مارس الانجليز الفنون الأخرى وهاموا بها وبجدوا آثار الأمم الأخرى فيها أهمل العرب الفنون الأخرى إهمالاً يكاد يكون تاما ، فلم تجتذب اهتمام نوابغهم ومثقفيهم ، وظل ما عرفوه منها أدنى إلى الصناعات منه إلى الفنون ، وظل الأدب — ولا سيما الشعر — يشغل فى عالم الفن والوجدان مكاناً عالياً وسلطة مطلقة فردية بين العرب ، كسلطة الخلفاء والأمراء المستبدة فى عالم السياسة ، متوحداً بالافصاح عن أفكارهم مستأثراً برعايتهم وإجلالهم

وقد خسر الأدب العربى بتفرده هذا الشىء الكثير ، لأن الفن الواحد لا ينمو خير نموه بعزلتــه ، بل بمواصلته الفنون الأخرى ؛ خسر ما كان ينتظر أن تمده به تلك الفنون من إلهامات ومنادح للقول ، وما كان ينتظر أن تبثه فى رجاله من فهم دقيق للفن وسمو غايته وتعاليه عن المـادة وبُعد مراميه ، وما توحيه إليهم من وسائل للتعبير والتصوير والملاءمة بين المعنى واللفظ ، وجعل الأخير دائماً خادما للأول . وبالجملة خسر الأدب معاونة الفنون التى استأثر بالمكانة دونها ، كما خسر مساعدة الآداب الأجنبية التى ترفّع عنها

فخرى أبو السعود

صـــديق !

للأستاذ على الطنطاوى

أستأذن أستاذنا المازنى فأستعير منه تلك الكليشيه المهجورة التى كان يصدر بها مقالات ذات الثوب الأرجوانى ، لأقول : إن المقالة خيالية لا حقيقية ، وأؤكد هـذا للقراء ! (على)

قال :

... لا أدرى كيف عرفته ، ولا أعلم السبيل التى دخل منها إلى قلبى ؛ فاحتل فيه هذه المنزلة ، ولم أنتبه له إلا وهو ملء سمعى وبصرى وعقلى ...

وإننى لأعرفه منذ عشرين يوما ، ولكنى أحاول عبثاً حين أحاول ادكار بدايتى معه ، لأنه عماد حياتى ؛ لا أستطيع أن أتصور لصلتى به بداية ؛ عرفته يوم عرفت الدنيا ؛ لم أجهله قط ولم أنفرد عنه ساعة ؛ وهو دنياى ، إن لقيته لقيت الحياة ، وإن نأى عنى وجدت كل شىء فى الحياة ميتا

ولست أدرى أى صلة هذه ، ولا أعرف لها تحديداً مضبوطاً ، ولكن الذى أدريه وأعرفه أنه ليس له فى أعماق قلبى إلا الصداقة . إننى لم أنظر إلا إلى روحه ، بل أنا لا أقدر أبداً أن أتخيله بشراً من لحم ودم . إننى أراه فكرة سامية ، صورة شعرية بارعة ، معنى من المعانى العبقرية ... إننى أراه وحده معنى كلمة الوجود ... لقد ضاعت معه حدود شخصيتى ، وعميت معالمها ، فلم أعد أعرف أين أنتهى (أنا) ، وأين يبدأ (هو) ، وامتزجت نفسى بنفسه ، فكأنى (أنا من أهوى ومن أهوى أنا . . .) ، وكدت أقول بالحلول ، وأرتكب هذه الحماقة الكبرى ، التى لا يقول بها ذو عقل . . . حين رأيتنى أضحك إذا سر (هو) ، وأحزن إذا تألم ، وأشبع إذا أكل ، وإذا أصابه الصداع وجعنى رأسه ؛ وإذا رأى (هو) حلماً هنيئاً تبسمت وأنا غارقٌ فى منامى ، أجد اللذة الكبرى فى رفاهيته وراحته ، وآلم لشقائه أكثر مما آلم لشقائى ، وأريد أن أمنحه صحتى وحياتى وكل ما أملك ؛ أريد أن أفنى فيه ولا أجد فى شىء من ذلك عملاً كبيراً ، ولا أحس أنى مقدم على تضحية ، لأنه اندمج فى أعمق عاطفة من عواطفى ، فنزل إلى

أبعد غور من نفسي ، وسيطر على قواي كلها ، فلم يبق لي عاطفة مستقلة أو حاسة حرة أفكر بها فيه ، وأزن صلتي به . . .

* * *

اختلف نظري الى الحياة ، وتبدلت المشاهد في عيني ، وكأن الدنيا كانت في ظلام ، حتى طلع في سمائها بدراً منيراً فأصبحت أرى كل شيء جميلاً في بصري : هذا السطح المشرف على الفضاء الرحيب ، سطح دارنا في «الأعظمية» ، وهذا النخيل الممتد الى غير ما نهاية ، وبغداد التي تلوح منائرها وقبابها كأنها معلقة في السماء حيال الأفق ، ودجلة التي تبدو من خلال الأغصان لامعة كصفحة المرآة المجلوة تشق عبابها الزوارق ، تتمايل شرعها البيض مع نسيم المساء الناعش الخفيف ، والبدر الذي طلع من الشرق يبدو منه حاجب ويختفي حاجب وراء نقاب من الغيوم ... وهذا الطريق الذي لم تمتد اليه يد الحكومة بالتعبيد فبقي على فطرته وجماله لم تشوهه كف الانسان ، يظهر تارة ، ويلتوى تارات ، ويضيع بين النخيل ويضل الطريق ... والفلاحين الذين يرجعون إلى دورهم حين تعود الشمس الى خدرها ، ويزدحمون على هذا الطريق الشعرى الضيق ، هم ودوابهم ومواشيهم تطنطن الأجراس في أعناقها والقطعان يسوقها الرعاة الذين تنكبوا عصيهم ثم ساروا وراءها يزمرون أو يغنون ، وهؤلاء الأطفال من تلاميذ المدارس الذين يلعبون في هذه الرحبة ، يتقاذفون الكرة يتصايحون ويتراكضون ، فاذا أمسك أحدهم بها ضربها برجله فانطلقت تشق الفضاء كأنها القنبلة ، ووقف الصبية صامتين قد علقوا أنفاسهم وتبعتها عيونهم ، تبصر مسيرها ، فاذا هبطت واستقرت على الأرض عادوا يركضون ويصيحون

أصبحت أرى كل شيء جميلاً في عيني حبيباً إليّ : الفلاحين الآوين الى بيوتهم ، والأطفال العاكفين على كرتهم ، والدواب والمواشي ... وأسمع في كل صوت أغنية عذبة ، أسمعها في حفيف الأوراق ، وزقزقة العصافير ، ونباح الكلاب ، ودوى الرعد ... وأرى الجمال في ظلام الليل الدامس ، كما أراه في صفحة البدر النير ، وأبصره في الصحراء المقفرة ، كما أبصره في الروضة المزهرة ، وأسمعه في صفير الرياح المرعب ، كما أسمعه في تغريد البلبل المطرب ، وألمسه في الخريف كما ألمسه في الربيع ؛ بل إني لأعجب من هؤلاء النظامين المتشاعرين الذين يسميهم الناس شعراء ، كيف يعمون عن صفحة الكون ، ثم يذهبون فيحدقون في صفحات الكتب ، وينظرون فيها بالجهر : هؤلاء المقلدين الذين يظنون أن الخريف معناه الوحشة أبداً والموت والكآبة ، وأن معنى الربيع الأنس دائماً والبهجة والسرور ، كأن العواطف البشرية تسير على التقويم الفلكي ، وتدور مع الأيام ... فليس على الشاعر إلا أن ينظر في التقويم حتى يرى أيوم حزن هو ، أم يوم سرور ؟! وكأن في وجه الأديب زجاجتي فوتوغراف لا تريان إلا ما في الوجود ، لا عيني إنسان يحس ويشعر

أين إذن عاطفة الشاعر ؟ وهل يرى الشاعر الحزين اليائس ربيعاً مشرقاً جميلاً ؟ ألا يرى في الربيع الوحشة والكآبة والحزن ؟ وهل يشعر الملول القانط بجمال الزهر ؟ والشاعر الفرح ؟ ألا يرى في الشتاء وفي الخريف جمالاً وبهجة ، ويبصر فيهما ورداً وزهراً ؟

إن في شعر هؤلاء المتشاعرين المقلدين كل شيء إلا الحياة ، إلا العاطفة ، إلا الروح . هو شعر ميت ، تمثال حسناء ، ولكنه من الشمع !

* * *

لقد ظهر هذا الصديق فجأة في طريقي ، فملك عليّ أمري ، وأخذ بيدي فسلك بي طريقاً جديدة ، حتى نأى بي عن الناس فأصبحت لا أرى في الدنيا غيره ، ولا أبصر سواه ، وصبّ في نفسي عزيمة وقوة ، فأحسست بالنشاط في جسمي وروحي ، ودفعني إلى أداء الواجب علي ، فوفيته على وجهه ، وساقني في سبيل الاستقامة والشرف ، وسما بي عن (الأنانية) والاستئثار فأضحيت أشفق حتى على أعدائي المخاصمين ، وأعطف حتى على المجرمين والساقطين ؛ وفتح لي مغاليق هذا الكون ، فاذا وراء هذه المظاهر دنيا من الجمال والجلال والسحر والفتون ، وإذا حيال هذه الدنيا دنيا أكبر ، وأحفل بالكائنات ، هي في نفسي ، فرأيت وأبصرت ونعمت وانتفعت ...

* * *

لقد دفعتني هذه الصداقة إلى الصلة بربي ، والقيام بواجبي ، والتعلق بأهلي ، فلست أريد بعدها شيئاً ، فخذوا الدنيا كلها ، حسبي أني أخذت منها صديقاً

(بغداد) علي الطنطاوي